دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الحدود المتسعة للإيمان بالله
ورؤيا متفائلة لموازين الله

حول أحداث الزلازل والفيضانات
والتذمُّر على الآلام

الأب متى المسكين

كتاب: الحدود المتسعة للإيمان بالله
ورؤية متفائلة لموازين الله
تأليف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: "الحدود المتسعة للإيمان بالله": رسالة كُتبت لأحد الإخوة عام ١٩٥٧؛ "رؤيا متفائلة لموازين الله": رسالة كُتبت لأحد الإخوة عام ١٩٥٨. ثم نُشرتا ضمن كتاب: "الحدود المتسعة للإيمان بالله"، ١٩٨٨، ١٩٩٣.
الطبعة الثالثة: ٢٠٠٥.
الناشر: دار مجلة مرقس
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ – القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٥/٤٤٢٦
الترقيم الدولي: 977-240-227-0

الحدود المتسعة للإيمان بالله

- المؤمن ورؤيته لقُوَى الطبيعة المدمِّرة بجبروتها وشدَّتها.
- الضرر والخسارة وقانون النمو العام: "حبة الحنطة".
- عقل الإنسان وحدوده في اكتشاف حكمة الله في الخليقة، ونموه في ضبط ثورات الطبيعة.
- الحرية الظاهرية لعقل الإنسان، وقوة الله الضابطة له.
- لماذا لا يُعاقب الله الملحد والمجدِّف بالمعجزات؟
- ما هي الحكَمة الإلهية وراء سماح الله بالاتجاهات السلبية التي تنشأ في الكون؟
- السؤال الذي لم يستطع العلم حتى الآن أن يردَّ عليه!
- مركز الإيمان بالنسبة للتفكير، وسعادة الإنسان الحقَّة!

معنى الإيمان بالله القادر على كل شيء

أن نؤمن بالله، فنحن نؤمن أنه قادر على كل شيء، وأنه حكيم، وأنه عادل، وأنه رحيم، وأنه مُحب.

والإيمان بالله يستلزم أن نثق بكل صفة من هذه الصفات ونعمل بها في حياتنا. والإيمان ليس ضرورة تعسفية لإرضاء سلطان الله، ولكنه هو سرُّ سعادة كل مَن يؤمن بمسرة وعن رضا. وإن كان الله قد حتَمَ بالإيمان على البشر، فذلك بدافع أهم صفة من صفاته وهي المحبة، لأنه إذ يحب الإنسان كخليقة ممتازة عنده، لذلك يدعوها في إصرار المحبة أن تؤمن به حتى تسعد بوجوده، وتُكمِّل القصد المبارَك الذي خلقها من أجله. فالله خلق الإنسان ليسعد بصفات الله التي كلها خير وصلاح.

وواضح الآن كل الوضوح أنه لما انحسر الإيمان وضعف في قلوب

الشعوب، بدأت تكثر أحزان الإنسان، وبدأ شبح الحرمان والمجاعات والحروب والدمار يزحف على المسكونة كلها. وسوف يتأكّد العالم كله، في لحظةٍ ما، أنه من المستحيل أن يسعد الإنسان بدون الله.

الإيمان بأن الله قادر على كل شيء،
هو إيمان بتفوُّق الله على قُوَى الطبيعة:

هذه هي الصفة الأولى، لا بالنسبة لله، لأننا لا نعرف ترتيب صفات الله في ذاته؛ ولكن بالنسبة للإنسان الذي يحيا في عالم مادي تتحكم فيه قُوَى طبيعية هائلة.

ونحن يجب أن نؤمن، بادئ كل ذي بدء، **بقدرة الله على كل شيء**، لأن الله هو هكذا بالفعل، وحتى لا ترعبنا قُوَى الطبيعة كأنها ذات السلطان الأعظم علينا من جهة حياتنا وأمننا وسلامنا. فالإنسان الذي يؤمن بتفوُّق الله على قوى الطبيعة يرتاح جداً، وخصوصاً إذا واجه شدَّتها أو اطَّلع على جبروتها الذي تعلنه في أماكن عديدة من العالم. **فالزلازل المُخرِّبة والبراكين والعواصف العاتية والفيضانات المخيفة والأوبئة الفتّاكة لا يمكن أن تُنزل الرعب في قلب إنسان يؤمن بتفوُّق قُوَى الله على قُوَى الطبيعة**. لهذا فهو في أوج ثورتها لا يرتاع، عالماً بأن الله ضابطٌ لجميع قواها في مسار لا تتعدَّاه، وأنه يضبطها بحكمة ليقودها حسب مشيئته المُعيَّنة والقصد المبارَك الذي خلقها من أجله. ومهما ظهرت آثارها المُخرِّبة، فالغاية التي تستقر عليها بعد ثورتها تحمل حتماً توجيهاً جديداً للساكنين على الأرض للارتقاء إلى حالة أفضل.

هذا التفوُّق الإلهي هو تحويل الخسارة إلى ربح أعظم:

وحينما نؤمن بقدرة الله الكلّية وحكمته التي تُسيِّر أمور العالم كله، نطمئن أنه لو أصاب العالم ضررٌ ما وأصابنا نحن جزءٌ منه، فالخير الذي سيتمخض عن هذا الضرر كفيل بأن يوازن الخسارة، بل ويزيد بالقدر الذي يكون فيه ارتقاء وإسعاد ملايين عَبْرَ الدهور عِوَض خسارة ألوف في زمنٍ محدود.

وهذا قانون تسير عليه الخليقة بكل أعضائها، وهو قانون النمو العام الذي تمثّله حبة الحنطة حينما تموت لتعيش مئة حبة، أو حينما تتمخض المرأة بآلام شديدة ليخرج مولود جديد. هكذا يؤكّد القديس بولس الرسول أن الخليقة تئن كلها وتتمخض معاً بانتظار تبنِّي الله للإنسان في وضعه الجديد كُلِّيةً، جسداً وروحاً، هذا الذي نترجَّاه بفارغ الصبر (انظر رو ٨: ٢٢و٢٣).

وكان ممكناً أن يتلافى الله كل خسارة من كل نوع في كل الخليقة، ولكن كان لابد أن يبقى كل شيء ثابتاً في ذاته لا يتغيَّر. فكان آدم يبقى آدمَ، وحبة الحنطة تبقى حبة الحنطة وحيدة وحدها، وكل شيء يُخلَق يبقى كما هو غير قابل للنمو، لأن النمو يشمل ولابد حالة انسلاخ من دور إلى دور، أي يشمل عملية موت وحياة.

دائماً خسارة أقل، وربح أعظم:

كذلك الأرض كان يمكن أن تبقى بلا زلازل وبراكين وفيضانات، ولكن كان يلزم حينئذ أن تقف عن الحركة وتُمنَع عنها الحرارة كلّيةً،

لأن بهذين العاملين تنشأ حتماً البراكين والزلازل والفيضانات والعواصف. إذن، فالخير الجزيل الذي يتمتع به الإنسان، سواء من نمو في جنسه وفي الخليقة الحيَّة الأخرى، أو من الحرارة التي يستخدمها في كافة شئونه، أو من الحركة التي يحسُّ بواسطتها بكيانه ووجوده، هذه كلها لابد تشمل قانون الخسارة والربح؛ ولكن دائماً أبداً: خسارةٌ أقلُّ وربحٌ أعظمُ، أي حركةٌ نحو الأفضل والأعظم، أي حركة نحو الله!!

وهكذا فإن إيماننا بقدرة الله الكليَّة وحكمته يزداد حينما نرى أن عمله في الخليقة يزداد ناحية الربح بشكل واضح ملموس على مدى السنين والأجيال.

فالإنسان - آدم - وُجد فرداً واحداً وحيداً، وها الآن يدُبُّ على الأرض ألفا مليون (عام ١٩٥٧ وقت كتابة هذه الرسالة، أما الآن - عام ٢٠٠٥ - فيبلغ العدد ٦٠٠٠ مليون) إنسان ويزيد. فالموت الذي ماته آدم انبعثت منه حياة لا يحصرها حدٌّ ولا عدٌّ، إذا ما أحصينا الأجيال كلها. والفيضانات التي قتلت ألوف الناس فيما سلف من الأزمان، نجدها الآن وقد أخصبت ملايين الأفدنة من الأراضي لتعول ملايين البشر على مر الأجيال. والزلازل التي خرَّبت بيوتاً عتيقة كثيرة، نشَّطت ألوف الأيدي العاملة لبناء مدن حديثة. والبراكين التي أهلكت أرواحاً ومدناً، أضافت إلى باطن الأرض استقراراً أكثر لضمان سنين مديدة لسعادة ملايين عديدة.

وهكذا نستطيع أن ننتقل ونمتد لنقول إن الخسارات العارضة التي تواجه الإنسان في الطبيعة هي في صف قدرة الله الكليَّة، لأنه بالرغم من

حدوثها بأشكال مفزعة، إلاَّ أنها كلها تتحوَّل إلى خير أعظم بواسطة حكمة قدرته الفائقة، حتى إننا نستطيع أن نقول إن قدرة الله الكليَّة، حتى وهي تستلزم حالات سلبية أشد؛ نلمس فيها (أي في قدرة الله) قدرته الأقوى على تحويل هذه الحالات السلبية إلى خير أكمل. لذلك كان علينا دائماً أن ندرك عملياً، وبالقياس المنطقي، أن قدرة الله الفائقة قادرة فعلاً على كل شيء لتحويل كل ما في الوجود إلى ما هو أفضل، **إنما على المدى الطويل.**

لم تستطع العوامل السلبية أن تسود العالم إلى ما لانهاية:

ومن الواضح أشد الوضوح أنه لم يستطع حتى الآن أي عامل سلبي واحد، منذ الخليقة وحتى اليوم، أن يسود العالم أو ينمو في تأثيره الضار إلى ما لانهاية بلا ضابط. لذلك نحن نؤمن يقيناً أن وراء هذه القوى السلبية توجد قوة الله "ضابطة الكل" التي توجِّه هذه السلبيات إلى خيرات وإلى حياة أفضل أكثر استقراراً وأكثر ازدهاراً.

ويمكننا أيضاً في ظل إيماننا الثابت بقدرة الله الفائقة على ضبط العالم الطبيعي أن نقول إنه بالنسبة للخير الحتمي الذي تؤول إليه كل أعمال الطبيعة وحركاتها، لا يوجد ما نسميه أعمالاً سلبية محضة، أو نعتبره خسارة كاملة؛ بل هي تحوُّلات لازمة لسير مجرى الحياة نحو الخير النهائي.

ويكفي تدليلاً على ذلك، أن العالم منذ أن خلقه الله حتى اليوم دائم النمو والحركة إلى ما هو أفضل، ولم يتقهقر قط. ربما تكون قد تراجعت عن الوجود أجناس برُمَّتها من الحيوانات أو النباتات وزالت لعدم تحمُّلها

عنف التغييرات في الطبيعة، ولكن قام عِوَضاً عنها أجناس أكثر قدرة على متابعة الحياة.

عقل الإنسان هو أحد الصور لقُوَى الله العاملة للخير في الكون:

ويلزمنا أيضاً أن نؤمن بأن قوة الله وقدرته الكليَّة ليستا صفتين جامدتين في شخص الله يدبِّر بهما حركات الكون من جهة ما وراء هذا الحجاب المادي الذي يُكوِّن عالم الإنسان.

فالإنسان أحد خلائق الله الممتازة، وقد خصَّه الله بعقل دقيق جداً له قدرة إلهية نفَّاذة في التعرُّف على جوهر الأشياء وحقائق الحياة المادية. وهو بذلك يتقابل مع الله في حقيقة الأشياء المخلوقة، فالخليقة مصنوعة بحكمة دقيقة غاية في الدقة، ولكنها غير خافية تماماً على عقل الإنسان. فلأن الإنسان مخلوق إلهي، وقد استودعه الله قسطاً وافراً من حكمته، ولأن الله صنع الخليقة أيضاً بحكمته؛ **لذلك فإن الإنسان يستطيع كل يوم أن يستكشف هذه الحكمة، ليس لأنه هو إله، ولكنه يكتشفها بالحق الذي في جوهر عقله.**

فالحكمة يدركها الحكيم، والحق يدركه الباحث عن الحق. ولكن لأن الإنسان هو مخلوق، لذلك فهو لا يكتشف جوهر الحق الخالق، وإنما يكتشف الأسلوب، مجرد الأسلوب الحكيم العجيب الذي صُنعت به هذه المصنوعات والخلائق، وذلك بصفته حاملاً لهذا الأسلوب عينه. فكلما اكتشف قانوناً في الحياة، هيَّأه هذا القانون لاكتشاف قانون آخر، وهكذا

يزداد الإنسان في معرفته للحكمة والحق عن طريق استيعاب أسلوب الحكمة والحق في الخليقة، والموجود في صميم كيانه أيضاً.

وكما خلق الله الضوء والحرارة والحركة في المادة تحت قوانين غاية في الترتيب والدقة والحكمة، كذلك خلق العقل في الإنسان. فكما تعمل الحرارة في الكون، كذلك يعمل عقل الإنسان. ولأن عقل الإنسان اختُصَّ بحكمة إلهية ومعرفة الحق، لذلك فهو أقدر المخلوقات جميعاً على عملية إنماء الخير وإسعاد الخليقة.

فكما أن الله يضبط الزلازل والانفجارات البركانية حتى لا تفسد الخليقة، وذلك بقوته الحكيمة؛ كذلك أعطى الإنسان أن يعمل بعقله الحكيم ليوقف الثورات المحلية للطبيعة أو يتفاداها أو يحوِّلها إلى ما هو أفضل. وهكَذا أعطاه أن يتسلَّط بعقله على الوحوش وعلى الميكروبات الفتَّاكة وعلى الأمراض المختلفة.

وكلما نما عقل الإنسان وامتلأ من المعرفة بحقيقة وخواص الخليقة والقوانين التي تسير عليها، ارتقى في قدرته الضابطة لها، وتمكَّن من تحريك الخير الأسمى بنفس التوجيه والأسلوب الذي يعمل به الله في الخليقة العامة بصورة أعم. ولكن لا يتبادر إلى الذهن أن الإنسان يعمل بوجهة نظره الخاصة كمخلوق سيِّد حُرٍّ في توجيه أعماله للخير الذي يبغيه أو للشر الذي يُضمره، كَلاَّ، فعقل الإنسان يخضع كبقية المخلوقات تحت قوة الله القادرة على كل شيء الضابطة لكل نواحي تقدُّمه وتفكيره.

والإنسان ولو أنه يعمل الشر عمداً أحياناً، ويرتكب أعمالاً مُخرِّبة

جنسه تبدو أنها شرٌّ مُسْتَطِيرٌ، ويبدو الخراب كائناً وراءها بشكل فظيع، كاختراعه آلات الحروب الفتّاكة؛ **إلاَّ أن عمل الشر هذا أيضاً لا يمكن أن يفلت من ضبط يد الله الضابطة الكل. فهو يوجِّهه في النهاية للخير، كما يوجِّه زلزالاً مروِّعاً.**

ولأن العقل البشري يميل - إن هو ابتعد عن الله - إلى ناحية اليسار، نحو التخريب؛ لذلك فهو ينضوي مُجبراً تحت الخليقة العاجزة التي يعوزها دائماً حكمة الله وتوجيهه.

لذلك فإن هذا السبب الأخير أَدْعَى لأن نؤمن ونعتمد ونثق بأهمية قدرة الله وحكمته على كل شيء، وإلاَّ يصبح عقل الإنسان - كما كان منذ البدء - سبباً في أن يُفسِد الحياة على نفسه، ويخلق له في الجنة بؤرة العصيان.

ولكن، وبالرغم من الحرية الظاهرية التي يبدو أن الإنسان يمتلكها لذاته في هذا الكون، إلاَّ أننا نستطيع أن نقول إن عقل الإنسان مضبوطٌ بقوة الله الفائقة، يعمل على المدى الواسع والبعيد، خاضعاً داخل دائرة حكمة الله ومقاصده الأزلية؛ وفي نفس الوقت، يتحرَّك داخل دائرة ذاتية محدودة، يعمل فيها كأنه حرٌّ، وكأن له مشيئة خاصة يوجِّهها كيفما شاء، سلباً أو إيجاباً. ومثله مِثل الأرض التي تدور حول نفسها في مدارها الخاص، وفي نفس الوقت تدور خاضعة لمدار الشمس، وهي في الحقيقة ليست حُرَّة في حركتها التي تظهر كأنها خاصة، أي حركتها اليومية، لأن منبع حركتها الخاصة هو أيضاً مستمدٌّ من قوة جذب الشمس وأثرها المباشر عليها.

كيف يَرْضَى الله - بالرغم من قدرته الفائقة - أن يُهان اسمه ويُنكَر وجوده؟

وأحياناً يتيه عقل الإنسان عجباً بقدراته الخاصة في فهم الأمور وضبط الأشياء البسيطة التي تقع تحت إمكانياته المتواضعة، فينكر الحكمة الفائقة التي تُدبِّر الخليقة كلها، وينكر الله الكلِّي القدرة، ويُجدِّف على اسمه العظيم جهاراً، فيحتار الناس: كيف يَرْضَى الله أن يُهان اسمه ويُنكر وجوده، مع أنه قادر أن يُظهِر قدرته الفائقة بأن يُعاقِب الملحد أو يلغي ادِّعاء المجدِّف بمعجزة مثلاً!

ولكن فات على الناس أن أيَّ ادعاء بإجراء سلبي يتخذه الله تجاه الذين ينكرون وجوده ويُجدِّفون عليه، يكون في الواقع انتقاصاً من صفته العظيمة، أي قدرته على كل شيء. فالله لو عاقب الإنسان عقاباً انتقامياً إزاء جحوده، كان ذلك معناه أن الله يدافع عن قدرته الإلهية، وكأنما قدرته الإلهية سيُصيبها شرٌّ أو ضررٌ، وهذا مُحال، لأن قوة الله لا يمكن أن يُنتقَص منها بأي عامل مهما كان، ولهذا تُدعَى: **"قدرة كلِّيَّة"**.

كذلك فإن الله لا يلغي ادِّعاء المجدِّفين عليه، بأن يثبت وجوده بمعجزة مثلاً، كما ينتظر الناس؛ فهذا يكون أيضاً نوعاً من الدفاع عن الذات، وحاشا لله! فقدرة الله ثابتة من الأزل وإلى الأبد، وتجديف الناس عليها والافتراء عليها إثما، وبمرور الزمن، يزيدها يقيناً وثباتاً. وهل يلغي جحود الإنسان وجود الله؟

قدرة الله الكليَّة تظهر في تحويل شر الملحدين إلى نهايات خيِّرة:

ولكن لقدرة الله الكليَّة عملاً آخر تعمله، يتضح منه أنها فائقة فعلاً وكلية، بكل معنى؛ وذلك بتحويل الشر الذي يُحدِثه الملحدون بإلحادهم وكُفرهم إلى نهايات خيِّرة. فبقدر ما يتبارى الملحدون في تقديم أدلة على انعدام وجود الله عملاً وفكراً، بقدر ما تُستنفر كل قُوَى الخير والإيمان في المؤمنين، لتعمل أكثر وتشهد أوفر، فيزداد تعمُّق الإنسان في إدراك الله على طول المدى.

وهكذا كلما خرج من صف البشرية الزاحفة نحو الله أعداد مُلحدة، ازداد وعي الإنسان بالله عمقاً واتصالاً، وبالنهاية يزداد وجود الله في عالم الإنسان قوةً ويقيناً.

فالإنسان خُلق ليكون بالنهاية خليقة خيِّرة في ذاتها، ليشهد لخيرية الله، وقد خُلقت إمكانياته لمقاصد خيِّرة تجاه الكون الذي يعمل فيه. علماً بأن الله لا يُعاقب الإنسان لمجرد العقاب، فالعقاب لا يتناسب مع صفة الله الكلِّي القدرة، ولا يتناسب مع قصده من خلقة الإنسان. فقدرة الله الكليَّة تنشط فقط ضد الاتجاهات السلبية التي تنشأ في الكون، سواء كانت عامة أو فردية، سواء من خليقة جامدة أو خليقة عاقلة؛ فتمتص الشر الذي فيها لتوجِّهه إلى الخير، وتحوِّله مع الزمن إلى ما هو أفضل. وقد سبق أن قلنا إن الثورات السلبية الطبيعية من زلازل وفيضانات يمكن أن نعتبرها نوعاً من النشاط الخيِّر، لو اتسعت نظرتنا لتشمل النتائج الإيجابية المترتبة عليها.

وكذلك يمكننا أن ننظر إلى حالات الثورات الفكرية ضد الحق والله

في الإنسان، سواء كان فرداً يُعبِّر عن سُخطه ضد الله، أو فئة تُعبِّر عن فلسفتها لإنكار وجوده، كأنها نوع من النشاط العقلي السلبي؛ فلا يُخمدها الله كعاجز بل يقودها في هدوء قدرته الفائقة كما يقود زلزالاً مُخرِّباً ليخرج منها ثمرات إيمانية غاية في الثبات والخصوبة، وإنما على المدى الطويل.

أمثلة على قدرة الله في تحويل الشر إلى نتائج خيِّرة:

فاضطهاد دقلديانوس المروِّع للمسيحية في العالم، أو حركة الإلحاد العلمي التي قامت ضد الدين في القرن الثامن عشر؛ لم يُحرِّك الله ليُميت هذا الطاغية أو ليهلك علماء قرن من الزمان، بل كان الله متسامحاً مع أعمال هذا ومهاترة أولئك؛ إذ كان يُهيِّئ للذين استشهدوا أكاليل مجد لا تَفْنَى، ويتمهَّل على العالم الوثني حتى يستنفد كل قواه. وفي نفس الوقت، وفي هذه الظروف المعاكسة، نشطت حركات إيمانية قوية في العالم المسيحي ارتوى منها العالم، ولا يزال يرتوي، كأنما دقلديانوس وغيره من الطغاة الذين زخرت بهم الأجيال عبارة عن فيضانات مُخرِّبة خلَّفت وراءها تربة خصبة أشبعت العالم كل الأجيال.

وهكذا، حتى لو أفسد الإنسان طريقه، فعقابه يتحوَّل، إن آجلاً أو عاجلاً، إلى خير وارتقاء للبشرية من حوله، والله دائماً هو الغالب لخير الإنسان.

وقد توجد حالات فردية حصل للإنسان فيها نوع من العقاب بسبب التجديف على الله أو إنكار عمله أو الكذب عليه، كهيرودس الذي لم

يُعط المجد لله، أو حنانيا وسفيرة، أو سيمون الساحر... إلخ. هذه جميعها لا نَرى العقاب فيها نوعاً من الانتقام، حاشا لله، فالله غير منتقم بالشرور؛ بل هو قضاء شكلي مؤقت يُعطي صورة لحقيقة القضاء النهائي في إلغاء ما هو سلبي لحساب ما هو إيجابي.

قدرة الله الفائقة وأعماق حكمته اللانهائية، لا يمكن الإلمام بها بالعقل:

حقاً إن عقل الإنسان أداة صالحة لمعرفة قدرة الله الفائقة وحكمته اللانهائية في الكون، ولكن لا يمكن أن يصلح للإحاطة بها، لأن العقل **"جزء"** من عمل قدرة الله وحكمته، وليس "كُلاً". ولذلك فإن دائرة معرفته تنحصر في دائرة ما يُدركه فقط ولن تتعدَّى يوماً ما يفوق إدراكه، وواضح أنه توجد أشياء حتى في العالم المادي تفوق إدراك الإنسان، كمنشأ الحياة مثلاً، أو ماذا تؤول إليه الحياة بعد الموت؟

وحتى ما هو في دائرة إدراك العقل البشري لن يستطيع الإنسان أن يُدرك منه إلاَّ ظواهره وسلوكه، أما ناموس العلَّة فهو أصعب من أن يفحصه العقل. فالإنسان يعرف كيف يحيا النبات وكيف ينمو، **ولكن لماذا يحيا النبات؟؟ ولماذا ينمو؟** هذا وكأنما له إرادة قوية مُلحَّة تدفعه من التربة وترفعه عالياً ضد قُوَى الجاذبية الأرضية الشديدة.

كذلك نحن نعرف كيف نفكِّر ونسلك ونتكلَّم ونعمل ونحيا، ولكن: **لماذا نحيا؟** هذه معضلة الفلاسفة التي لم يقوَ عقل بشري على الإفصاح عنها. وهكذا مهما تعمَّق الفكر البشري في الخليقة لفحص دقائق الكون

والخلائق، فهو لن يكتشف إلاَّ النواميس التي تحيا بمقتضاها إن كانت حية، أو خواصها الطبيعية إذا كانت جامدة.

فالعلم يستطيع أن يتوصل إلى تحليل كل شيء ومعرفة ما فيه من قوة كامنة، وهو يُحلِّل أدق ذرَّة في الوجود ويكتشف خواصها ويستخدم قدرتها الكامنة فيها، سواء للخير أو للشر، **ولكن لن يعرف لماذا خُلقت الذرَّة؟** ونحن لا نستطيع أن نقلل من قيمة ناموس العلَّة بالنسبة لناموس السلوك. فمهما اكتشفنا من القوانين التي يسير عليها العالم، ومهما استخدمنا من خواص المواد التي نفحصها ونحلِّلها، ومهما عرفنا من صفات وطبائع الخلائق الحية، ثم أخفقنا في معرفة لماذا خُلق العالم وما فيه، ولماذا خُلقنا نحن؛ فإنَّ كل معرفتنا الأخرى تبقى ناقصة، بل وتصير فاقدة لأهم عنصر في مفهوم الإدراك وهو: علَّة وجودها، مما يُشكِّل سبباً من أسباب تعطيل سعادة الإنسان في حياة هذا الدهر. ولن يستطيع العقل أبداً بالرغم مما فيه من معرفة وحكمة أن يُدرك من فحصه الخاص للأمور المادية ناموس العلَّة أو بالحري مقاصد الله في الخليقة.

إذن، فلا ننتظر أن توصِّلنا معرفتنا بالأمور إلى معرفتنا لقدرة الله وحكمته، ولكن العكس صحيح، فإيماننا بقدرة الله الكلية وحكمته **تُهيئ لنا بالتأمُّل في الخليقة اكتشاف الحق الذي تقوم عليه أعمال يديه، فيزداد الإيمان بقدرة الله ويزداد اليقين بكل وعوده.**

فبالرغم من أن مشيئة الله في جوهرها المطلق غير مفحوصة كما يقول الكتاب: «يا لعمق غِنَى الله وحكمته وعلمه. **ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. لأن مَن عرف فكر الرب**» (رو ١١:

٣٣ و٣٤)، «**الحكمة المكتومة... لم يَعلَمْها أحد من عظماء هذا الدهر**» (١كو ٢: ٧و٨)، «**لأنه مَن عرف فكر الرب فيُعلِّمه**» (١كو ٢: ١٦)، وذلك من جهة إمكانيات الإنسان الشخصية؛ إلاّ أن جميع أعمال الله ومشيئته مفحوصة بواسطة روح الله وبالإيمان به:

+ «الحكمة المكتومة... الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.. أمور الله لا يعرفها أحد إلاّ روح الله... **فأعلنه الله لنا نحن بروحه.**» (١كو ٢: ٧و١٠و١١و١٠)

+ «إذ **عرَّفنا بسرِّ مشيئته حسب مسرته** التي قصدها في نفسه.» (أف ١: ٩)

+ «إن لم تؤمنوا فلن تفهموا.» (إش ٧: ٩ حسب السبعينية)

+ «من أجل ذلك... لم نزل مُصلّين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته في كل حكمة وفهم روحي.» (كو ١: ٩)

+ «لأن الأرض تمتلئ من معرفة مجد الرب كما تغطِّي المياه البحر.» (حبقوق ٢: ١٤)

***

وهكذا نرى أنه لا يصح الاعتماد على الفحص العقلي لتقرير كُنْه الإيمان بقدرة الله الفائقة وحكمته، وكذلك فإن هذا العجز الذي يصطدم به العقل في فهمه لناموس علّة الموجودات، هو سبب كافٍ ليكون الإيمان أساس التفكير لبلوغ إدراك الله وليس الفحص العقلي، وذلك أمر حتمي حتى يكفل للإنسان سعادته بالله وامتداده في معرفة الحق وأسرار الحياة والإحساس بالوجود وعلّته.

رؤيا متفائلة لموازين الله

- ما هي رؤيا الإنسان المسيحي تجاه موازين الله التي يسوس بها العالم؟
- هل الألم والمرض والموت والحروب والزلازل والنكبات الطبيعية الأخرى تتعارض مع رحمة الله؟
- هل يصح أن ننظر إلى هذه النكبات على أنها علامات غضب أو انتقام إلهي من الإنسان؟
- ما صلة رحمة الله بالإنسان الذي يُستهدف للألم والموت؟ وبالأشخاص الذين حُرموا من رعاية عائلهم حين يموت؟
- ما السبيل إلى الانفكاك من الواقع المؤلم؟
- "التذمُّر من الحرمان"، و"الرغبة في المزيد" وأثرها على تمزُّق الإنسان، والآلام وصدمات الحياة ودورها في اكتشاف الإنسان عظمة خلوده.
- رؤيا الخلود من وراء الألم!

تعديل لمفهوم الرحمة

كثيراً ما نخلط بين الرحمة في نظر الناس ورحمة الله، ذلك لأن أعمال الله مع الإنسان تتراءى لنا كأنها صفاته مع أنها الأسلوب الذي يتفق مع طبيعتنا المتغيِّرة المستهدفة للنكوص والتقدُّم.

والرحمة التي يعرفها الناس عن الله، أصبح لها في أذهانهم مقياسٌ أساسه شعورهم بالرحمة كما يقيسها الإنسان من نحو الآخر، مع أن هذا المقياس البشري من الضعف والمحدودية بدرجة لا يصح ولا يليق أن نحصر به رحمة الله الخاصة به.

ولكن لا مفر من استخدام هذا القياس مبدئياً لإدراك الرحمة عموماً. فهو الوسيلة الحسية الوحيدة التي يمكن أن يتذوقها عامة الناس. ولكن

يلزم لِمَن يريد أن يتفهَّم أحكام الله الخاصة من جهة الرحمة أن يسمو من الإدراك الحسي إلى الإدراك العقلي، حتى ندرك الرحمة الإلهية الفائقة غير المحدودة!

ونحن لا نستطيع أن نقتحم اللانهائية بفكرنا المحدود لنتفهم أمورها التي لا تُحَدُّ كما نقيس أبعاد الأجسام المادية؛ بل كل ما يستطيع أن يسعفنا به العقل، هو أن يصل بنا عن طريق الإحساسات والقياسات المادية إلى حافة عالم المادة، ويتركنا نواجه اللانهائية لنتحسس الحقيقة من خلف الواقع بوجداننا الروحي.

نحن نرى أن رحمة الإنسان تتعارض مع قتل الإنسان، وبهذا يتكون في ذهننا صورة محدودة للرحمة. ولكن نحن نعلم أيضاً أن المجتمع يوقع حكم القتل على الإنسان المجرم، ولا أحد يحتج بأن ذلك يتنافى مع إحساسات الرحمة، وبهذا تتفكك الحدود التي وضعناها سابقاً للرحمة، وتمتد الرحمة عن طريق آخر غير الإحساس المادي تتحكم فيها قياسات منطقية عقلية.

فإذا كان الإنسان يمكن أن يجيز القتل ولا يتعارض ذلك مع الرحمة، فأيُّ اتساع يمكن أن نتصوَّره عن الرحمة في معاملات الله لنا التي تفوق قياسات العقل والمنطق؟

كذلك نحن لا نجهل أن من صميم عمل الرحمة عند الإنسان أن لا يَدَع حيواناً جريحاً أو مريضاً يتألم ألماً مبرِّحاً معروف أنه سيؤدِّي به إلى موت، بل يُعجِّل بموته رحمة به. فإن كانت رحمة الإنسان تجيز قتل الحيوان ولا يتعارض ذلك مع مشاعره الرقيقة، إذ يسمو الحس العقلي والمنطقي على الإحساس الجسدي الشعوري؛ فكيف نغلق تفكيرنا عن

رحمة الله معنا ومع الخليقة في دائرة الإحساسات الجسدية المحدودة؟

فإذا كانت الرحمة حسب القياس البشري يمكن أن تتسع لتشمل أعمالاً ليست في الأصل من اختصاصها، بل أحياناً ضدها وعكسها؛ فجديرٌ بنا إذا تحدثنا عن رحمة الله أو تفكَّرنا في غاياتها أن لا نقف عند حدود تعارُضها مع إحساساتنا الجسدية والعقلية؛ كأن رحمة الله أخطأت هدفها أو جنحت عن سبيل المنطق السرِّي فنجزع!

ولا يليق بنا أن نتغاضى عن الأمر الحادث في عدم مبالاة، لأن ذلك حريٌّ أن يبلغ بصاحبه إلى موات الشعور والعاطفة؛ **بل ولا يليق أيضاً أن نُخضع مثل هذا التعارُض وننسبه للقَدَر أو نؤوِّله إلى رحمة الله تعسُّفاً دون أن نتفهم لياقته لوجداننا**، لأن ذلك حريٌّ أيضاً أن يبلغ بصاحبه إلى تكوين **فكرة مُبهمة عن الله قابلة للتشويش والخلط**. إنما اللائق حقاً أن نرهف الإحساس الوجداني من كل نواحيه حتى يتفهَّم الإنسان ويتذوَّق رحمة الله في كل ما يحدث حوله مهما كانت صور تعارُضه مع الإحساسات الجسدية أو منطق البشر.

ومن الأمور الشائعة لدى التفكير البشري **أن يؤخذ الألم والمرض والموت والحروب والزلازل والنكبات الطبيعية الأخرى مأخذاً يتعارَض مع رحمة الله، أو على الأقل لا يتمشَّى معها فتختفي صورة الرحمة الإلهية من ذهن الإنسان**، ويُنظر إلى أعمال الله كأنها علامات غضب أو انتقام منه، مع أننا لو تفهَّمنا الأمر بروحنا ووجداننا، ما وجدنا أي تعارُض مع الرحمة في أي حادث يحدث تحت الشمس.

فلو تأملنا في الموت الذي هو تحصيل الألم النهائي بكل صوره العديدة

والمتعددة التي لا تدخل تحت حصر، سواء بأمراض فجائية أو مستعصية أو حوادث أو حروب أو زلازل أو مجاعات، نرى أن الأثر المباشر الذي يُحدثه الموت يقع على شقَّين:

الشق الأول: الإنسان الذي يُستهدف للألم والموت،

الشق الثاني: الأشخاص الذين حُرموا من رعاية الميت.

الشق الأول:

فالإنسان الذي يُستهدف للموت لا يُعتبر الموت بالنسبة له حادثاً غريباً، فهو لابد أن يجوز الموت في حياته، وها هي ساعته قد جاءت، فلا عجب ولا دهشة في ذلك؛ بل إن حياته الماضية كلها لا تحمل من الجد والحق بقدر ما تحمله هذه الساعة. ومهما كانت صورة ذلك الموت شديدة وعنيفة، ومهما كانت نوازع الألم التي تلازمها، فكلها في اعتبار المائت نفسه لا قيمة لها. ولكن شدَّتها وبشاعتها تظل عالقة في أذهان الذين عادوه وهو على فراش الموت.

من هنا أصبح الموت في نظر الأحياء حالة مُرعبة مُفزعة، مع أنها لا تزيد في حقيقتها عن مثل حالة مريض متألِّم يقف ألمه فجأة بعامل مخدِّر. فإن كان المرض لا يُرعبنا، فأجدر بذلك الموت ذاته. فنحن لو تبسَّطنا في اعتبارات الموت بالنسبة للمائت لوجدنا أن الموت يدخل في دائرة الرحمة خصوصاً إذا كان يسبقه ألم.

الشق الثاني:

أما الأشخاص الذين حُرموا من رعاية عائلهم بموته، فهنا تنبري لهم رحمة الله واضحة سافرة، فيُنصِّب الله نفسه أباً لهم بكل معنى الأُبوَّة من حنان وحَدَب ورعاية، ويزيد الله على الأُبوَّة عبئاً آخر يُحمِّله لنفسه، وهو أنه يكون قاضياً لهم «أبو اليتامى وقاضي الأرامل» (مز ٦٨: ٥)، «اترك أيتامك أنا أُحييهم، وأراملك عليَّ ليتوكَّلن» (إر ٤٩: ١١). ويا لها من كلمة تحمل معاني وأسراراً عميقة؛ بل واختبارات وحقائق ملموسة. فإن كان يقع على مثل هؤلاء نوعٌ من الجهد الزائد للقيام بأعواز المعيشة، فذلك سيكون حتماً تحت عناية الله الخاصة ورعايته المباشرة.

وهكذا يتضح أن نصيب هؤلاء الأشخاص من الرحمة قد ازداد بموت عائلهم!!

فإن كان الموت يظهر كحادثة أليمة مجرَّدة تحمل في ظاهرها معنى خاطئاً من معاني الترك والإهمال من جانب الله، فذلك بسبب قصورنا في فحص قضيتها، إذ أن جوهرها يحمل حقيقة عكسية تماماً وهي تحمُّل الله لمسئولية ذلك البيت نفسه. وخلاصة القول إن الله الذي يُميت ويُحيي قد ضَمِنَ لنا بشخصه أنه لن يتخلَّى عن رحمته قط لإنسان يسعى في إثرها، وقد تكفَّل بنفسه حفظ حقوقنا في الأعواز الجسدية والروحية، حتى ولو فقدنا عائلنا الوحيد.

وكم من نوابغ العالم فقدوا عائلهم وهم في الطفولة، فكان هذا الحرمان حافزاً لتنشيط ملكات الفهم والإحساس عندهم، فنبغوا في كل

علم وفن. وما هذا إلاَّ نوع من التعويض الإلهي، ويظهر كأنه قرينة طبيعية، مع أنه في حقيقته عمل إلهي متناسق. وحتى إذا لم يوفَّق اليتيم إلى بلوغ درجة المتوسط في الحياة كنتيجة مباشرة لفقد أبيه فلا يمكن أن نسوق اللوم جزافاً على جانب الله، لأن الله قد سبق وأودع البشرية عواطف الحنان والحَدَب على المعوزين مع وصية خاصة باليتيم والأرملة. وهذا يُعتبر رصيداً هائلاً مُدْخراً في جانب هؤلاء المساكين.

وهكذا إن كان الموت يحمل، في ناحية، صورةً من الحرمان واقعة على الذين فقدوا عائلهم؛ فهو يحمل صورة خيِّرة، من ناحية أخرى، هي تنشيط غرائز العطف والمحبة في البشرية لممارسة الرحمة المنسكبة في قلوبهم بروح الله من نحو المحتاجين لتكميل جسد البشرية.

إذن، فالله لا يكفُّ عن توفير الرحمة وإعلان حنان أبوَّته بشتَّى الطرق حسب منطق الخليقة وترتيب نواميسها الحكيمة النافعة واللائقة والمستعدة لكل خير. والذي تنفتح بصيرته يُدرك مقدار الغنَى الذي أجزله الله في الطبيعة البشرية، بحيث أن قيام نقص فردي أو أيّ طارئ سلبي يُقابله احتياطات هائلة مذخرة في الطبيعة البشرية وفي الخليقة بوجه عام لتعويضه، والذي يلزمنا هو التعرُّف على مواهبنا أولاً ثم تنشيطها وتنسيقها واستخدامها لصالح أعواز الإنسان سواء كانت فردية أو جماعية أو دولية أو عالمية.

تعديل لمفهوم الآلام التعسفية

إن إحساسنا بالألم هو جزء هام من مَلَكة الإحساسات البشرية المتسعة التي يحيا بها الإنسان في هذا الكون العجيب الهائل.

وليس هناك ما يفصل الإحساسات الجسدية عن الإحساسات النفسية، بل هما مزيج مؤتلف ائتلافاً يؤهِّلنا للاشتراك اشتراكاً فعلياً في هذا الوجود حولنا الذي هو مزيج أيضاً من مادة وروح! فأجسادنا تدب على الأرض كجزء منها تشترك معها في كل ما لها وما عليها، تخضع لكل قوانين العالم الكوني، ويسري عليها كل ما يسري على المادة من قوانين الجاذبية والحركة والحرارة والضغط والتغيير، لأن أجسادنا هي في الواقع حفنة من تراب الأرض تنتقل عليها بقوة النفس الحية المتحدة بها.

وأجسادنا تحس بعالم المادة وقوانينها، لا إحساس الإدراك العقلي فقط، ولكن بانسجام تُحتِّمه طبيعة المادة الواحدة فهي منها!

أما أرواحنا فهي أيضاً تُكوِّن جزءاً هاماً من الوجود الروحي الحي تحس به إحساساً غامضاً ولكنه قوي، وذلك عن طريق إحساسها بذاتها، لأن شعورها بكيانها ووجودها هو اشتراك فعلي في الوجود العام.

وطالما نحن أحياء في الجسد فلن نستطيع أن نفصل بين مشاعر الجسد ومشاعر النفس من حيث الإحساس بالوجود العام. لأن أُلفة الحياة البشرية بين الجسد والروح توطَّدت حتى يستطيع الإنسان أن ينسجم في هذا العالم الكوني الروحي دون أن تنقسم جبلته على ذاتها. وائتلاف هذه الإحساسات الجسدية والروحية معاً في جبلة الإنسان جعلته مخلوقاً متميِّزاً عن باقي المخلوقات، فلا هو حيوان محض بليد الإحساس فاقد الوجدان محدود المشاعر في إطار جسد حي وحسب، ولا هو روح محض مترفِّع الإحساس منطلق المشاعر في قُوَى الروح بلا حدود. ولكنه ائتلاف عجيب بين إحساس حيواني بليد وإحساس روحي مترفِّع، فهو يمتلك

أطراف المشاعر من أدناها في الجسد إلى أعلاها في الروح. هذا الائتلاف الفريد من نوعه جعل الإنسان يمتاز بأحاسيس راقية، ولكنها تزداد رقة كلما سما الإنسان بروحه، وهي بمجموعها عميقة تمتد حتى أصول الغرائز الحيوانية، وسامية تُلِمُّ بما وراء الطبيعة، شيء لا مثيل له في أي خليقة أخرى!

الإنسان مُطالَب بالتسامي:

ولم يكن ائتلاف مشاعر الروح بمشاعر الجسد مسألة جزافية، ولكن واضحٌ الهدف الذي يكمن وراء ذلك. فالإنسان مُطالَب بأن يسمو بغرائزه وأحاسيسه الجسدية الطبيعية إلى المستوى الروحي الذي يُمكّنه من أن يحفظ درجة خلقته البشرية فوق مستوى الحيوان!! فلا هو مُطالَبٌ أن يسمو فوق أحاسيس الجسد إطلاقاً ليكون في درجة الملائكة، ولا هو مسموح له أن ينحط إلى مستوى أحاسيس الحيوان ضارباً الصفح عن إمكانياته الروحية.

معنى التسامي:

والنتيجة المباشرة لهذه الألفة العجيبة بين إحساسات الجسد والروح أن صار للإنسان القدرة، من ناحية، على توجيه الأحاسيس الجسدية إلى مستويات روحية ممتازة، وهذا ما نسميه بالتسامي؛ ومن الناحية الأخرى، قدرته على إخضاع الإلهامات الروحية وإخراجها إلى حيِّز الوجود الظاهري الجسدي، وهذا ما نسميه بالبر والفضيلة والسلوك الراقي. من أجل هذا وهب الله القدير الإنسان **مراكز عصبية دقيقة**

ومراكز المخ العُليا التي بلغت من الرُّقِي والحساسية والاختصاص مبلغاً لم نعهده في جهاز آخر سواء في الإنسان نفسه أو في خليقة أخرى، حتى يستطيع أن يسمو بالمشاعر الجسدية إلى أقصى غاية ممكنة لتتماس مع الإحساسات النفسية ذات المراكز العُليا المجهولة. وفي نفس الوقت يظل قادراً على التقاط أحاسيس النفس العُليا وإلهامات الروح، ثم إخضاعها للحس العقلي بصياغتها في كلام مسموع أو عمل فني أو روحي.

وهكذا نرى أن الحساسية الممتازة في مراكز الشعور والإحساس في الإنسان تخدم قضية الإنسان الروحية؛ بل إنها وُجدت لتُهيِّئ للإنسان فرص السمو الروحي، لأنه لو كان الإنسان مخلوقاً حيوانياً فقط لَمَا أعوزه هذا الإرهاف الشديد في مشاعره، وخصوصاً في تميُّزه بآلاف الأنواع من الآلام، ومنها آلام لا تخدم قضية الحياة الجسدية (الحيوانية)؛ بل على العكس تقلّل من إسعادها والأخذ بمسرّاتها، وأحياناً تُسيء إليها إساءة شديدة، وربما تقضي عليها كالآلام النفسية المعقدة.

إذن، فلو حاولنا تفهُّم الآلام الكثيرة التي تصيب الإنسان من وجهة النظر التعايشية أي في حدود ما تقتضيه الحياة الجسدية للإنسان وحسب، فنحن لن نجد تأويلاً حقاً لكثير من الآلام؛ بل ولن نوفّق إلى قانون يُنظِّم صلة الإنسان بها.

إذن، فما هي أهمية دور الآلام في حياة الإنسان؟

فإذا أعدنا النظر وأدخلنا في اعتبارنا أهمية دور الآلام من الناحية

الروحية للإنسان، فحينئذ نجد تأويلاً حقاً لجميع الآلام؛ بل وإذا أجهدنا أنفسنا بالقدر اللائق لأهمية هذا الموضوع، لاستطعنا أن نُوفَّق إلى قانونٍ ما يُنظِّم صلة الإنسان بالآلام، على هَدْيِ قول الرسول: «إنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢)؛ أو تفهُّماً لقول الرسول يعقوب: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة» (يع ١: ٢)؛ أو قول بولس الرسول: «لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢كو ١٢: ١٠)، «صابرين في الضيق» (رو ١٢: ١٢)؛ أو قول بطرس الرسول: «إن عُيِّرتم باسم المسيح فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحلُّ عليكم» (١بط ٤: ١٤)، «إن كنتم تتألَّمون عاملين الخير فتصبرون (فهذه نعمة من عند الله).» (١بط ٢: ٢٠)

ولكن ليس الجميع استخدموا أحاسيسهم المرهفة ومراكزهم العصبية الممتازة للهدف السامي الذي خُلقت له، أي لحياة بشرية متسامية فاضلة ذات غايات إنسانية وروحية عالية؛ إذ يوجد كثيرون اكتفوا بأحاسيسهم ووجدانهم وقُوَى العقل ومراكزه الحسَّاسة للتفاعُل مع حقائق الجسد والعالم والماديات وحسب.

لذلك نجد أن الأوَّلين كانوا قادرين دائماً على امتصاص صدمات الحياة المؤلمة والانتفاع بها، وقد مهروا في تحويل الآلام العارضة إلى اختبارات نفسية وروحية نافعة، وكأن الآلام صارت صديقاً نَصُوحاً لهم، أو كأن الآلام أصبحت لهم لغة الواقع التي يمكن تحويلها إلى معان روحية سامية ومفيدة. وهذا في الحقيقة يُحسب أنه المستوى اللائق للتركيب الوجداني للإنسان، بينما الآخرون نجدهم فاشلين في استخدام صدمات

الحياة متذمِّرين على آلامهم العارضة، وعلى آلام غيرهم أيضاً، وكأنما الآلام صارت عدواً عنيداً لهم تزيدهم تشاؤماً، وتهبط بكل مستوياتهم العُليا لتعمل على أقل درجة من التفاعُل مع الحياة اليومية حتى لتكاد تماثل الحيوان في انحصاره في دائرة النشاط الجسدي وحسب.

الانفكاك من الواقع المؤلم:

و"الواقع" المقصود هنا هو الواقع المادي المحسوس الضيِّق أو التشاؤم العقلي المُعاش، حينما يقف في وجه الإنسان كطريق مسدود: مرض عضال، إخفاق، ظلم، اضطهاد، إلى آخره من المسلسل المأسوي الذي تنثره الحياة بلا حساب في وجه الساعين إلى قمم الطموحات، الأمر الذي إذا تشابك معه الإنسان لحظة، انغمر في دوامة الهموم والأحقاد، وانحجبت عنه بهجة الحياة برحبها اللانهائي، وفَقَدَ كل ما تحويه هذه الحياة الرحبة من رجاء لا يُحدُّ، رجاء يعلو ويتشامخ فوق كل واقع مادي مأسوي؛ بل وفوق كل قياس عقلي متشائم، الأمر الذي يُعتبر بحدِّ ذاته أبدع وأروع ما يمكن أن يرتشفه الإنسان من رحيق الوجود.

لقد أمد الله الإنسان بطاقة الخلود في صميم خلقته الأولى، ليظل متفوِّقاً على الموت حتى ولو انهزم الجسد بضرباته، بل وسيظل الإنسان يستشف أمجاد الخلود هذه، حتى ومن خلف مذلاَّت القهر، فترتسم على وجهه في النهاية ابتسامة الغلبة على هذا العالم، من خلف دموع الواقع المفجع.

فالإنسان إذا وَعَى عظمة خلوده والتحم بعناصر روحه الخفَّاقة الآتية

من نسمات الله، **فسيُدرك أنه مجهَّز سراً بجناحَي الروح ليطير فوق وادي الموت بكل أنينه وأوهامه، لا يخاف منها شراً كعصفور خُلق ليتسنَّم قمم النور**، لا أن يستوطن وَحْل الواقع المخادع. فالإنسان أَعظم من الزمان، وبالتالي هو أعظم من كل ما ينسجه الزمان من حادثات مصيرها الحقيقي إلى نسيان ثم إلى زوال.

لذلك كان أخطر ما يواجه الإنسان في هذه الدنيا أن يفقد رؤيا الخلود، فيختل توازنه على طريق الحياة، فيسقط في دوامة الواقع المادي الضيِّق، الذي هو من صُنع هذا الزمان، فيبدأ يتحسس نفسه على قياس الحظوظ ما أتاه وما فلت من يديه، ويقيس ما صار إليه على ما صار إليه الناس، فتنطوي نفسه تحت مرارة قياس عقله وتنحصر روحه وكل مَلَكاته ولا تعود تساوي في تقديره مسرة أو كرامة من كرامات الآخرين المصنوعة أصلاً من تراب الأرض وإليها تعود، فيصغر الإنسان في نفسه حتى العدم.

وليس المحرومون من حظوظ المسرَّات والكرامات هم وحدهم الذين يسقطون في فخ الواقع المؤلم المتذمِّر المحدود بالزمان والمكان؛ بل وهؤلاء أيضاً الذين يسعون بلا حذر وراء الرغبة وأشواق المسرَّات الخارجية وكرامات وأمجاد هذا الدهر، يلهبهم الطموح إلى المزيد ثم المزيد دون أن يبلغوا قط حدَّ الارتواء، ولن يبلغوا. فكل هدف يبلغونه يدفعهم لينطرحوا تحت أقدام هدف آخر دون شبع. **هؤلاء عبيد "الرغبة في المزيد"**، فهي فخُّهم الضيِّق الذي يربطهم قسراً وبلا رحمة في الزمان والمكان، فيجعل من دقائق الساعة ومن مكاتبهم الفخمة سجنهم الضيق

الكئيب.

والأمر الغريب أن يتساوى الذي يعتبر نفسه محروماً من مقوِّمات المسرَّات والسعادة الزمنية مع الآخذين منها بالرغبة المتزايدة دون شبع أو ارتواء، إذ يسقط كلاهما في دائرة الواقع المادي المربوط بالزمان والمكان إلى حدِّ العبودية وفقدان الكيان. هذا ينجذب إلى الفخ من واقع الإحساس الجارف بالحرمان على مقياس الظلم، وذاك ينجذب إلى نفس الفخ من واقع جنون "الرغبة في المزيد" دون ارتواء. وهكذا يستطيع العالم بالخداع المادي أن يغوي الإنسان، نفس الإنسان، إلى السقوط تحت عبودية الدائرة المغلقة للزمان والمكان، ويسلبه حرية وجوده وامتداد كيانه فوق الزمان والمكان بالحرمان المتزايد وبالعطاء المتزايد من السعادة الوهمية على حدٍّ سواء!!

وكيف، إذن، يكون الفكاك:

إن الأبدية السعيدة واللانهائية، غير المنحصرة قط، والخلود برحابته ورجائه الذي لا ينتهي أبداً ولا يتوقف أبداً، **هما داخل الإنسان وليس خارجه** «ها ملكوت الله داخلكم» (لو ١٧: ٢١). إن خدعة العالم العظمى أن يُغوَى الإنسان لينظر إلى السعادة خارجاً عن ذاته، ويطلب الله بعيداً عن قلبه.

لذلك، فباختصار شديد نقول: إن السقوط في الشعور بمرارة الحرمان من مقوِّمات السعادة الوهمية والكرامة المتأتية من المظاهر الخارجية، هو في الحقيقة انعكاس صادق أو رد فعل غاية في الوضوح

يُعبِّر عن فداحة الخطأ والخسارة التي وقع فيها الإنسان عندما أعطى ظهره إلى مقوِّمات السعادة الداخلية بعمقها الأبدي ورجائها وغناها الذي لا يُحدُّ داخل الإنسان، **أي أن السقوط في مرارة الشعور بالحرمان** هو في الحقيقة عقاب مباشر، يظل يُلاحق الإنسان دون أن يدري، **ليس بسبب حرمان زائف، بل بسبب فقدانه للرؤية الحقيقية للسعادة الحقيقية**. ومما يزيد هذه المعادلة وضوحاً هو أن مقدار الشعور الطاغي والصادق بمرارة الإحساس بالحرمان الذي يُلاحق الإنسان بلا هوادة، والذي ينكِّد عليه حياته ويُفقده اتزانه وكيانه، لا يساوي أبداً أبداً فقداناً وهمياً لتلك السعادة الوهمية الزائلة أو الكرامة الظاهرية الزائفة، أي أن الشعور الطاغي بمرارة الحرمان هنا هو إحساس نابع عن فقدان حقيقة وحرمان من سعادة صادقة وليست وهمية، التي هي سعادة الإنسان الداخلية الدائمة وغير الزائلة برجائها وفرحها الممتدَّيْن في أعماق الصلة الأبدية بالله.

وهذا يعني أنه بمجرد أن يشعر الإنسان في داخله بإحساس الحرمان من مظاهر السعادة والكرامة في هذه الدنيا وتشتد عليه مرارة الإحساس بالحرمان، يكون هذا نذيراً خطيراً أنه بدأ ينفك عن أعماقه، ويهجر عظمته الداخلية وغناه وخلوده وأسباب فرحه ورجائه الأبدي، فيخرج ينعي حظه العاثر، ويقيس قامته على التوافه من أمجاد الدنيا والمظاهر والزائلات التي تحت أرجل الآخرين.

أما ذلك الإنسان الذي وقع عبداً للرغبة في المزيد والارتفاع، يلهبه الشوق للتحرُّك غير القانع من قمة إلى قمة بحماس ونشاط وطموح لا يرتوي؛ فالخدعة التي تُحرِّكه للمزيد هي هي بذاتها تكون له طريق

الفكاك، لأنه بقليل من التروِّي يمكن أن يدرك أن "الرغبة في المزيد" لا يمكن أن تقف عند حدٍّ لتُحقِّق له القناعة أو الرضا بالواقع، مهما حاول أن يقنع ذاته ويضبط طموحاته، لماذا؟

لأن **"الرغبة الملتهبة في المزيد"** هي في جوهرها هبة كيانية غُرست في طبيعة الإنسان لتناسب نموه في اللانهائيات، **لا لتنحصر في المحدود من الزائلات**. فالرغبة الملتهبة في المزيد التي لا تنتهي ولا تشبع ولا تقف عند حد، **جديرة حقاً بما هو للإلهيات**.

لذلك، ففي اللحظة التي فيها يربط الإنسان **"غريزة رغبته الملتهبة في المزيد"** بما هو لها حقاً - أي فيما لله - تنتهي الخدعة العظمى، ويتوقَّف الإنسان فجأة عن الجري اللاهث في حلقة الطموح المفرَّغة وراء الزائلات، ويبدأ ومن أعماقه يشق طريقه نحو الله إلى ما لانهاية مع قناعة في الأمور المادية تزيده نجاحاً.

- الضرر والخسارة وقانون النمو العام: "حبة الحنطة".
- لماذا لا يُعاقِب الله الملحد والمجدِّف بالمعجزات؟
- السؤال الذي لم يستطع العلم حتى الآن أن يردَّ عليه!
- ما هي رؤيا الإنسان المسيحي تجاه موازين الله التي يسوس بها العالم؟
- هل الألم والمرض والموت والحروب والزلازل والنكبات الطبيعية الأخرى تتعارض مع رحمة الله؟
- هل يصح أن ننظر إلى هذه النكبات على أنها علامات غضب أو انتقام إلهي من الإنسان؟
- ما السبيل إلى الانفكاك من الواقع المؤلم؟
- "التذمُّر من الحرمان"، و"الرغبة في المزيد" وأثرها على تمزُّق الإنسان، والآلام وصدمات الحياة ودورها في اكتشاف الإنسان عظمة خلوده.
- رؤيا الخلود من وراء الألم!

الثمن ٧٥ قرشاً